القسم الأول

التأليف التاريخى فى مصر

فى القرن التاسع عشر

— ١ —

تطور التأليف التاريخى

فى مصر الإسلامية

بدأت حركة التأليف التاريخى فى مصر الإسلامية بابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر والأندلس » ، ثم نشطت هذه الحركة بعد ذلك نشاطاً عجيباً لم تشهده بلد من البلاد الإسلامية ، وأنتج المؤرخون المصريون إنتاجاً ضخماً وألفوا فى معظم فنون التأليف التاريخى ، وظلت هذه الحركة نشيطة عصراً بعد عصر ، وتتابع المؤرخون المصريون قرناً بعد قرن ، وكل منهم يضيف إلى جهد سابقيه ، إما تكملة أو تذييلا أو إضافة أو ابتكاراً ، حتى إذا كان القرن الخامس عشر الميلادى وجدنا أن حركة التأريخ فى مصر الإسلامية بلغت أوجها ووصلت الذروة من حيث وفرة الإنتاج وتنوعه ، ومن حيث عدد المؤرخين العظام الذين ظهروا فى هذا القرن .

ولعل السمة الظاهرة التى تميز مؤرخى مصر فى هذا القرن

أنهم كلهم مؤلفو موسوعات ، وأنهم جميعاً وافرو الإنتاج ، ويكفى أن نشير هنا إلى أسماء بعضهم من أمثال : ابن خلدون ، والمقريزى ، وابن حجر ، والعينى ، وابن تغرى بردى ، وابن الصيرفى ، والسخاوى ، والسيوطى ، وابن إياس[1] ... الخ .

وكان آخر من عرفته مصر من المؤرخين فى نهاية العصر المملوكى : ابن إياس ، وابن زُنبل الرمال ، وهما مؤرخان لهما قدرهما ، فقد شهدا نهاية عصر المماليك — عصر الاستقلال — ، وبداية العصر العثمانى — عصر التبعية والغزو الخارجى — ، وقد أرخا للفتح العثمانى فى كتابيهما تأريخاً له قيمته .

وقد شهد الشرق الأوسط الإسلامى فى بداية القرن السادس عشر تغيراً أساسياً ، فقد نجح الأتراك العثمانيون فى القضاء على الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وفى الانتصار على الدولة الصفوية ، ونتيجة لهذا الانتصار المزدوج ضمت مصر والشام ، كما ضم العراق إلى أملاك الدولة العثمانية ، وأصبحت القسطنطينية بعد انتقال الخلافة الإسلامية إليها مركز الثقل ، ومحور الارتكاز فى العالم الإسلامى .

ولعل هذا يفسر لنا بعض التفسير ركود الحركة العلمية بوجه

---

(١) راجع : محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

عام — وحركة التأليف التاريخى بوجه خاص — فى مصر طيلة القرون الثلاثة التى خضعت فيها للحكم العثمانى ؛ فقد أصبحت القسطنطينية مركز النشاط العلمى فى العالم العثمانى ، فهى مقر السلطان والخليفة ، بل هى عاصمة الدولة الإسلامية ، والدولة كانت تركية اللسان ، فمن البديهى إذن أن تنشط حركة التأليف بين علماء الأتراك ، وباللغة التركية ، وأن تضعف حركة التأليف باللغة العربية ، يضاف إلى هذا أن السلطان سليماً الأول كان قد صحب معه حين خروجه من مصر عدداً من كبار العلماء وكل ماهر فى فن أو صنعة ، كما حمل معه معظم ما كانت تزخر به مكتبات القاهرة من نوادر الكتب والمؤلفات .

لهذا لا نعجب إذا لاحظنا أن حركة التأليف التاريخى التى ظلت مستمرة متصلة منذ ابن عبد الحكم إلى ابن إياس قد انقطعت خلال هذه القرون العثمانية الثلاثة ، فلا نجد مؤرخاً مصرياً له شأن أو قيمة بعد ابن إياس ، اللهم إلا إذا اعتبرنا صوفيا كالشعرانى[1] مؤرخاً حين يكتب كتابه « الطبقات الكبرى » فى تراجم الصوفية[2] ، ويستمر هذا الفراغ ملحوظاً إلى أن يقرب

---

(١) انظر : توفيق الطويل : الشعرانى — مجموعة أعلام الإسلام — ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

(٢) حقيقة لقد ظهر فى مصر فى العصر العثمانى عدد من المؤلفين الذين كتبوا فى التاريخ ، ولكنهم فى جملتهم لا يستطيعون أن يرقوا إلى مرتبة =

= من مؤرخي القرن الخامس عشر أو القرون التي قبله، ومن المفيد – ونحن نتتبع هنا تطور الحركة التاريخية قبل القرن التاسع عشر – أن نشير إلى بعض هؤلاء المؤرخين وإلى إنتاجهم .

فمنهم محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) وتوفي سنة ١٠٨٧ هـ ، وله ثلاثة كتب تاريخية لا زالت مخطوطة ، هي :

(ا) الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة ، وفيه يؤرخ لولاة مصر وقضاة العسكر في العصر العثماني إلى سنة ١٠٥٤ هـ .

(ب) عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، وهو تاريخ مختصر لمصر والدول التي تعاقبت على حكمها إلى آخر عصر المماليك الجراكسة .

(حـ) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، وفيه يؤرخ لسلاطين آل عثمان وينتهي إلى سنة ١٠٢٩ هـ (انظر ترجمته في : محمد توفيق البكري : بيت الصديق ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ٧٣ – ٧٨ ؛ وإبراهيم العبيدي المصري : عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق ، القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

ومنهم : الإسحاقي المنوفي (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح) ، وهو من رجال القرن الحادي عشر (١٧ م) كذلك ، ترجم له المحبي فقال : إنه كان قاضيا فاضلا عالما مؤرخا ، كثير النظم ، صحيح الفكرة ، وله تاريخ لطيف ورسائل كثيرة ، قرأ ببلده على شيوخ كثيرين ، وكان يتردد إلى مصر ، وأخذ بها عن أكابر علمائها ، وتوفي في نيف وستين وألف ببلدة منوف ، وكتابه التاريخي سماه « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » ، ورتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة ، وأرخ فيه لمن ولي مصر من حكام منذ الفتح العربي إلى أوائل القرن الحادي عشر ، وانتهى من تأليفه سنة ١٠٣٣ هـ ، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة طبعات مختلفة في السنوات ١٢٧٦ و ١٢٩٦ و ١٣٠٠ .

ومنهم الجزري الحنبلي (عبد القادر الأنصاري) وهو من رجال القرن العاشر (١٦ م) وقضى معظم حياته موظفا في إدارة الحج بالقاهرة ، ومصحب قافلة الحج من مصر إلى الحجاز سنوات كثيرة ، وألف في سنة ١٥٥٤م =

= كتابا بعنوان «الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»، والكتاب يشبه أن يكون مذكرات شخصية ، وقد ضمّنه مؤلفه معلومات قيمة كثيرة عن أخبار الحج ومنازله وكيفية الرحيل والنزول والإقامة ، وأرخ فيه لمن حج بالناس من الخلفاء والصحابة والأمراء والأعيان من مختلف البقاع والأماكن ، كما شرح مناسك الحج على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ، ورتب الحوادث فيه على السنين الهجرية ؛ وتوجد من هذا الكتاب نسخة ناقصة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ومنه نسختان لم يشر إليهما بر وكلمان ، إحداهما فى المكتبة التيمورية بالقاهرة ، والثانية — وهى أكثر أهمية لأنها بخط المؤلف — وتوجد فى مكتبة الأزهر تحت رقم ٢٨٤٤ تاريخ . انظر أيضا : (Jacques Jomier : *Le Mahmal et la Caravane Egyptienne des Pelerins de la Mecque, XIIIe —XXe Siecle, Le Caire 1953*) ونحب أن نشير هنا كذلك إلى أن المصريين كانوا هم السابقين إلى وضع كتب تترجم لرجال قرن بأكمله ، بدأ هذا النوع من كتب التراجم ابن حجر حين ألف كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، ثم أتى بعده تلميذه السخاوى فألف كتابه « الضوء اللامع فى تراجم أعيان القرن التاسع » .

ثم انقطع هذا اللون من ألوان التأليف التاريخى من مصر فى العصر العثمانى ، وانتقل إلى أيدى المؤرخين السوريين ، فألفوا كتبا ثلاثة ضخمة للترجمة للرجال الذين عاشوا فى قرون العصر العثمانى الثلاثة : العاشر ، والحادى عشر ، والثانى عشر : أرخ الغزى (نجم الدين محمد بن محمد) لرجال القرن العاشر فى كتابه : « الكواكب السائرة فى تراجم أعيان المائة العاشرة » .

وأرخ المحبى لرجال القرن الحادى عشر فى كتابه « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » .

وأرخ المرادى لرجال القرن الثانى عشر فى كتابه : « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » .

وحاول مؤرخ مصرى (من رجال القرن الرابع عشر الهجرى) هو =

القرن الثامن عشر من نهايته ، وتبدأ فى مصر محاولة للاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية على يد على بك الكبير[١] ، وتمهد هذه اليقظة إلى نهضة علمية تظهر على استحياء ، ويظهر عدد من العلماء والأدباء والمفكرين ذوى نشاط ملحوظ ، فنسمع عن السيد محمد مرتضى الزبيدى[٢] — صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، وشرح كتاب الإحياء للغزالى ، وغيرهما من الكتب الوفيرة العدد — ، وعن شيخ الأزهر الشيخ الشبراوى[٣] الذى يقول شعراً فيه لمحة من لمحات التجديد ، وعن الشيخ إسماعيل

= أحمد تيمور إتمام السلسلة فيما بعد بالترجمة لرجال القرن الثالث عشر ، ولكنه لم ينجز من مؤلفه هذا إلا قسما يسيرا هو الذى طبع بعد وفاته بعنوان : « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر » ، القاهرة ١٩٤٠ . انظر : جمال الدين الشيال : الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، ج ٢ ، مصر والشام ؛ القاهرة ١٩٥٨

(١) انظر : محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ وما به من مراجع .

(٢) انظر ترجمته فى : (الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٩٦ — ٢١٠ ، حوادث سنة ١٢٠٥ هـ) و (الشبلنجى : نور الأبصار فى مناقب آل البيت المختار ، بولاق ١٢٩٠) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٩٣ — ٩٤) و (الشيال ؛ الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٥ — ٧٩) .

(٣) للشيخ الشبراوى ترجمة وافية فى « عجائب الآثار » للجبرتى .

الخشاب[١] — الشاعر النـاثر — ، وعن الشيخ حسن الجبرتى[٢] — العالم الرياضى الفلـكى — ، وعن الشيخ حسن العطار[٣] ، وهو شيخ آخر من شيوخ الأزهر له ولع بقراءة الـكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية وخاصة فى علمى التـاريخ والجغرافيا ، ثم نسمع أخيراً عن عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المعروف .

والجبرتى هو الذى سيصل ما انقطع من حبل الحركة التأليفية التاريخية ، فهو أول مؤرخ مصرى يظهر بعد ابن إياس وابن زنبل ، وبعـد أن خلت مصر من المؤرخين الـكبار ثلاثة قرون كاملة .

---

(١) و (٢) و (٣) لهؤلاء الشيوخ تراجم وافية فى « عجائب الآثار » للجبرتى .